محاضرة د. هيثم الخياط
بتاريخ 4 – 2005
بعنوان القَدَر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، خطر لي اليوم أن نتكلم عن الكلمة المؤلَّفة من ثلاثة أحرف لكنها عظيمة الشأن جداً، وهي القاف والدال والراء أو "القَدَر" وما يُشتق منها وما يدور حولها وإلى آخره، وطبعاً المعنى العام المعروف لها هو القدرة بمعنى القوة، ولذلك نجد بدعاء الاستخارة "اللهم إني استقدرك بقدرتك" أي أسألك أن تهبني القدرة بقدرتك، فأطلب منك أن تجعل لي عليه قدرة أو قوة، وهذا هو المعنى الأصلي للقدرة وهو القوة، ولذلك أيضاً يُقال قدَّره الله عليه أو أقدَرَه الله عليه، وهو يستقّدر الله عزّ وجلّ أي يسأله أن يعطيه القُدرة. وهناك حديث لسيدنا عثمان عن قضية الذبح، ونحن نعرف أن ذبح الإبل يجب أن يكون نحر أي بالعنق، فسيدنا عثمان وجد أن الناس يجدون صعوبة في بعض الأحيان، وهنالك أيضاً الصيد الذي يُصاد عن بُعد، فقال: "إنما الذبح في العنق واللبدة – فهذه المنطقة تُسمى اللبدة – لمن قدر" أي أن الذي يستطيع أن يفعل ذلك فهذا يجب أن يفعل ذلك، ولكن الإنسان الذي لا يستطيع فهو بأي شكلٍ كان يمكن يُعتبر ذلك ...، "..... في الحق واللبدة لمن قدر".

والأمر الآخر للقَدْر هو موضوع الحساب، ومنها موضوع القياس وقضية الحساب هي قضية هامة جداً، أن يقدِر الإنسان أي يحسُب، ولذلك قال النبي ﷺ بالنسبة للصوم في رمضان: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فاقدُروا له"، فمعنى اقدُروا له أي ارجعوا إلى الحساب، وهذا نص صريح وصحيح في الموضوع لكن مع الأسف أن عقولنا المُظلِمة لا تحاول إطلاقاً أن

تفهم هذا الحديث على ما هو عليه، فاقدُروا أي احسبوا، وأصلاً أول الحديث "نحن أمةٌ أُميّة لا نكتب ولا نحسُب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا ..." وفي مرة أخرى قال: "هكذا وهكذا وهكذا" وقبض إصبعان، يعني أنه ثلاثون أو تسع وعشرون. والأمة الآن لم تعد أُمّة أُميّة وإنما أصبحت أُمة تكتب وتحسب، فيجب أن تعتمد على الحساب، لذلك قال الله سبحانه وتعالى عن الشمس والقمر: ﴿قدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، فالله سبحانه وتعالى جعل ذلك لنعلم الحساب ومع ذلك نحن نرفض هذا الحساب ونُصرّ على أن نتّبع طريقة سيدنا أنس بن مالك في رؤيته، فقد شهد ذات مرة سيدنا أنس بن مالك برؤية الهلال ولم يره الآخرون، وبالطبع هذه الأشياء يراها الجمع، فكان القاضي شديد الذكاء اسمه شُرَيح، فانتبه أن هناك شعرة على جبين سيدنا أنس بن مالك بيضاء تنزل، فسوى له حاجبه وقال له: "انظر يا عم هل ترى شيء ؟"، فقال له: "لا والله يا بني، لست أرى"، فعرف أن هذا كان بسبب الشعرة، والآن أكثر إثباتات الشهر تكون بهذا الشكل، ولا نعتمد على الحساب مع أن النبي ﷺ قال: "فاقدروا له".

إذن فهذا هو المعنى الآخر للقَدَر والذي هو الحساب والقياس، لكن يبقى المعنى الأساسي وهو القدرة والقوة، وهنا أحب أن أقدِّم لمقدمة صغيرة، فالله سبحانه وتعالى يذكر كثيراً في القرآن وفي أكثر من موضع أنه سبحانه وتعالى عَالِم الغيب والشهادة، لكن ليس في القرآن ولا الحديث ذِكر لعَالَم الغيب والشهادة، وعالَم الشهادة هو العالَم الذي نستطيع أن نشهده بحواسنا، فنستطيع أن نرى ما فيه وأن نسمع ما فيه وأن تلمس ما فيه، فالحواس توصلنا لمعرفة هذا العالَم، فلهذا نسميه عالَم الشهادة، ليس فقط كذلك، لكن أيضاً نسمح لعقولنا أن تتصور إلى أبعد حدود التصوُّر والخيال، فهذا أيضاً يدخل في عالَم الغيب والشهادة، لأننا حينما نتصور أو نتخيل فكأننا نشهَد، فهذا كله نسميه عالَم الشهادة،

وبالمقابل هناك عالَم الغيب، وعالَم الغيب هو ما وراء عالَم الشهادة، وهنالك عوالم كثيرة ليست عالَماً واحداً فقط من عوالَم الغيب لا نستطيع أن نشهدها، فلا حواسنا تستطيع أن تراها أو تشعر بها أو تلمسها، ولا أقصى ما يصل إليه خيالنا يمكن أن يصل إليه، لأنها أشياء ليس في وسع الإنسان أن نتخيلها، فكأننا مثلاً نطلب من نملة أن تتخيل ما هي أبعاد الإنسان، فهذا بالطبع لا يمكن فهي لديها عالَم خاص تستطيع أن تتحرك فيه وحواسها تستطيع أن تستوعبه، فهنالك إذن عوالم هي عوالم غيب وهي عدد لا متناهي من العوالم، وهذه ليست في حدود عالم الشهادة، فعلى سبيل المثال في الفيزياء فنحن نعرف أن هناك الأمواج التي تُرى أو التي تُسمع فكلها أصبحت أمواج كما نعلم، فهنالك على سبيل المثال الأمواج المرئية التي تُرى وهي أمواج الضياء، فنحن نعرف أن هذه الأمواج تتجلى بعدد من الألوان كما نعرف؛ الأحمر فالأصفر فالأخضر فالبنفسجي، ثم بعد ذلك قالوا هنالك ما تحت الأحمر "Infra red" وما فوق البنفسجي "Ultra violet"، ثم حتى أقصى ما تحت الأحمر وأقصى ما فوق البنفسجي، لكن نصل إلى حدود نقف عندها، فهنالك نحن متأكدون أنه يجب أنه يجب أن يكون هنالك أشياء أخرى لكننا لا نراها، فمع ذلك أخذنا نتصور حتى بلغ بنا الأم إلى أن تصورنا بنية الذرة، وهذه الذرة لا تُرى ولم تُرى حتى الآن، وبدأنا أن ننزل إلى مستوى الـ "Mano" والـ "Phento" والـ "Actro" ربما نصل إلى هذه الدرجات ما استطعنا، ثم بعد ذلك نقف، وكذلك بالنسبة للكِبَر، وصلنا لـ "Kilo" والـ "Mega" والـ "Gega" إلى آخره، ثم أيضاً نقف، فهنالك أشياء وراء كل ما نعرفه، وكل هذه عوالم غيب لا نعرف عنها شيئاً إطلاقاً ولا نستطيع أن نتصورها، لكن هذه العوالم سواءٌ عوالم الغيب أو عالَم الشهادة، كلها لها قوانين ناظمة لها تنظم الحياة فيها تنظيماً دقيقاً كاملاً، وهي قوانين ثابتة،

ولذلك يُطلِق عليها القرآن الكريم اسم السنن، فكل السنن هي سنن الله في خلقه حتى في القوانين الاجتماعية مثل: ﴿سنّة الله في الذين خلّوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾، فهذه القوانين أو السنن ثابتة ﴿ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾، ونحن في عالَم الشهادة نرى من هذه القوانين أو السنن أو فيما نكتشفه منها شيئاً فشيئاً ما تسمح به حواسنا وعقولنا في أبعادها التي تستطيع أن تصل إليها، لكن لا نستطيع أن نكتشف قوانين عوالم الغيب لأن هذا شيء خارج عن طاقتنا أو قدرتنا. والله سبحانه وتعالى قدّر الإنسان على أن يكتشف أو يستنبط هذه القوانين الموجودة في عالَم الشهادة وقدّره أيضاً على أن يتصرف في حدود هذه القوانين بكل حرية مادام يأخذ ما ورد في القوانين في الاعتبار ويراعيه فهو يستطيع أن يستفيد من هذا القانون وأن يستغله بالشكل الذي يحقق مصلحته، وهذا ما يسميه القرآن الكريم باسم التسخير والله سبحانه وتعالى قد سخّر الليل وسخّر القمر وسخّر البحر وسخّر الأنعام ﴿وسخّر لكم الأنهار وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار﴾، فهو سبحانه قدّرنا أو جعل في مُكنتنا أن نستطيع الاستفادة مما في آيات الله هذه من طاقة لنستغلها في منفعتنا، فهذه نستطيع أن نتصرف فيها من خلال مفهوم التسخير، والدكتور محمد عبد السلام – رحمه الله – الذي كان قد حصل على جائزة نوبل في الفيزياء، كان يقول في مقالة له جميلة جداً في مجلة اليونسكو بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري أن الركنان الأساسيان هما التفكير والتسخير، وهما بمصطلح اليوم العلم والتكنولوجيا، وهذا ملمح مهم جداً من الدكتور محمد عبد السلام، فالتسخير هو العملية التكنولوجية لأنه استعمال الحقائق الموجودة للاستفادة منها فيما يفيد البشرية، فيبني الحضارة والتقدم والتنمية، فالتكنولوجيا هي تطبيق العلم بما يفيد الناس، فمثلاً العلم يخبرنا أننا إذا خفّضنا درجة حرارة

مائعٍ ما إلى نسبة معينة فيمكن أن يحصل له كذا، والتكنولوجيا هي أن نأتي بهذا المائع ونستخدمه لتشغيل جهاز معين مثل الثلاجة. فالله سبحانه وتعالى بفضله ومنّه وكرمه قد قدّر الإنسان على اكتشاف هذه القوانين الكونية واستنباطها، وقدّره أيضاً على التصرف في حدود هذه القوانين أو تسخيرها لما فيه مصلحته، لتحويل بعض ما هو ضائع ليصبح مفيداً، مثل السيول التي تنهار، فحينما يفكر الإنسان يجد أن من واجبه أن يبني سدّاً، وهذا السد يحفظ المياه ثم بعد ذلك يمكن له أن يُولِّد منه الكهرباء بسبب نزولها بقوة، فهذه من قوانين عالَم الشهادة التي يستغلها الإنسان، فبعض ما هو مُخَرِّب يصبح مُعَمِّراً، وهذه من الطاقات الهائلة الموجودة في الكَوْن، فهنا يبدو وكأن الإنسان يتحدى هذه القوانين، فعندما يكون هنالك سيل ونبني سداً في وجهه فكأننا نتحدى هذه القوانين، إذن نحن لدينا تقديرٌ من الله سبحانه وتعالى لنا على التعرف على هذه القوانين ولدينا تقديرٌ من الله سبحانه وتعالى لنا على التصرف في حدود هذه القوانين، فهو إذن تقدير على التعرف وتقدير على التصرف، ولعل هذا بعض ما تشير إليه آيات سورة الأعلى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى﴾، فإذن هو سبحانه قدّر الإنسان، وهذه قضية هامة جداً فلو لم يقدّرنا الله على ذلك لما كان ذلك في استطاعتنا، فالله سبحانه وتعالى أراد برحمته ومشيئته أن يمنحنا هذه القدرات العظيمة، ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ والهداية كما قلنا الأصل فيها الدلالة ولكن يمكن أن تكون بمعنى الإيصال أحياناً، لكن هذه القوانين النافذة أو السارية المفعول في عالَم الشهادة ليست منفصلة عن القوانين السارية أو نافذة المفعول في عالَم الغيب، وصحيح أن الله سبحانه وتعالى لم يُقدِّرنا أن نعرف ما في عالَم الغيب فنحن لا نرى ولا نكتشف ما به، لكن هذا لا يعني أن القوانين ليست سارية أو نافذة المفعول وأنها لا تؤثر

أيضاً في هذا الكَوْن بشكل غير مرئي لنا، لذلك هذه القوانين تتجلى بين حينٍ وآخر في عالَم الشهادة بما يبدو وكأنه تحويلٌ لقوانين عالَم الشهادة، وأقول يبدو لأننا في عالَم الشهادة لا نعرف هذه القوانين الأخرى ولا نملك حتى القدرة على تصورها، فنحن نرى المسننات مثلاً التي تدور في العجلة التي في عالَم الشهادة لكن هذه قد تكون مشتبكة مع مسننات في عجلة أكبر في عالَم الغيب، ونحن لا نرى هذه العجلة الكُبرى لكن نرى بين حين وآخر أن عجلة عالَم الشهادة قد تحرّكت بشكل لم نكن نتوقعه، وهذا سببه هذا الارتباط مع عالَم الغيب، لكن الله سبحانه وتعالى لم يُقدِّرنا على أن نعرفه. والله سبحانه وتعالى كما قدّر الإنسان قدّر كذلك القوانين، أي جعلها ذات قدرة فجعلها نافذة أو سارية المفعول في عالَم الشهادة، وهو الذي قدّر قوانين عالَم الغيب كذلك، ونحن نشهد في عالَم الشهادة نتائج التقدير الأول واضحة وجلّية ونستطيع أن نكتشفها ونتصرف فيها كما قلنا، ونشهد بين حينٍ وآخر مظهراً من مظاهر التقدير في عالَم الغيب، فظواهر التقدير الذي لا نستطيع تفسيره بمقتضى قوانين عالَم الشهادة نرده إلى عالَم الغيب.

والله سبحانه وتعالى إلى جانب تقديره لهذه القوانين أو تمكينها من أن تكون سارية المفعول وأن تنفذ قد قدّر الإنسان كما قلنا أن ... فجعله قادراً على اتخاذ القرار وقادراً على التصرف وقادراً على التسخير بهذه القوى الطبيعية التي قدّرها الله عزّ وجلّ على الاستجابة لهذا الإنسان وإطاعته، إذا عرف كيفية تطويعه وتسخيره في إطار القوانين التي تحكم عالَم الشهادة، لكن شتان بين تقديرٍ وتقدير، فتقدير القوانين تقديرٌ صارم لا يدع لها حرية التبديل والتحويل كما قلنا ﴿لن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾، إذن فهي مُقدّرة أو مُمكّنة من أن تكون نافذة ولكنها لا تستطيع أن تتحول عن مسارها من طلقاء نفسها أبداً، أما تقدير

الإنسان فهو تقدير مرن – إن صحّ التعبير – تُرِكت فيه للإنسان حرية الإرادة والاختيار، فالإنسان يستطيع أن يريد ويستطيع أن يختار، وهذا طبعاً مظهر من مظاهر التكريم لهذا المخلوق العجيب، ولعله بعض أسرار الآية الكريمة ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ... وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً﴾، ومن هذا التفضيل الذي فضلّ الله سبحانه وتعالى به بني آدم في فطرتهم أنه جعلهم قادرين أي أعطاهم التمكين كما يُطلقون عليها الآن بمعنى "empowerment" فقدّر الإنسان على ذلك لكن منح له بالإضافة إلى هذا التقدير حرية الإرادة والاختيار بحيث يستطيع أن يغير كما يشاء ويتجه في الاتجاه الذي يشاء ولو خالف ما أمره الله سبحانه وتعالى به، وبطبيعة الحال هذا مظهر من مظاهر إنسانية الإنسان كما ذكرت في مرة سابقة وهو أن أهم قيمة في نظر الإسلام في اعتقادي هي قيمة الحرية لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ وقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾، والفتنة هي سلب الحرية، فهذا هو المعنى الرئيسي لها، أيضاً ﴿الذين يُفتنون عن دينهم﴾، والقتل هم سلب الحياة، فإذا كان سلب الحرية أشد من سلب الحياة، فهذا يعني أن الحرية أهم من الحياة ذاتها، وهذا بالطبع ليس مُستغرباً لأن إنسانية الإنسان بملء إرادته أن يؤمن أو يكفر ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، فلديه الحرية أن يطيع أو يعصي وأن يفعل الخير أو يفعل الشر، هذه الحرية منحه الله سبحانه وتعالى إياها وقدّره على أن يفعل الخير وأن يفعل الشر وهداه إلى كل طريق، أي أنه يُعلِمه أنه إذا فعل هذا فهو من طريق الخير وإذا فعل هذا فهو من طريق الشر، ﴿قدّر فهدى﴾، ﴿وهديناه النجدين﴾، فهذا كله تفضّل الله سبحانه وتعالى به على هذا المخلوق العجيب وبعد ذلك ترك له هذه الحرية، لكن حينما يكون الإنسان لديه مثل هذه الحرية المُطلقة فمن الطبيعي أن يتحمل

مسئولية مُطلقة عن عمله، فلا يمكن للحرية أن تنفصل عن المسئولية، فحينما يحصل على هذه الحرية فيجب أن يقابلها بمقدرة على المسئولية والمسائلة، فمسئولية الإنسان هذه مَيزة مهمة جداً لهذا المخلوق يختلف فيها عن غيره من المخلوقات، وهذه المُسائلة أو "Accountability" إن صحّ التعبير هي مُسائلةٌ مزدوجة، أي أن هنالك مُسائلة دنيوية يقدِّم فيها كشف حساب أمام محاكم عالَم الشهادة وهنالك مُسائلة أُخروية يقدِّم فيها كشف الحساب إلى ربه عزّ وجلّ حينما يقول له سبحانه: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ فتكون المحاسبة هنا، ونعود هنا إلى ما ذكرناه أولاً عن كلمة القاف والدال والراء، فكما قلنا أن التقدير هو هذا التمكين لكن التقدير فيه حساب أيضاً، والحساب بمعنيين؛ بمعنى أن يحسُب الإنسان ومعنى أن يُحاسب وأن يُسأل.

إذن الحياة هي مزيج من هذه التقادير؛ تقدير القوانين وتقدير البشر على أن يستطيعوا أن يفعلوا ما بإرادتهم وما هم مُخيّرون به، وهذا كما قلت تخيير مُطلق وحرية مُطلقة، لكن تقابلها مسئولية مُطلقة أيضاً بقَدَر،فكما كان الإنسان حراً حريةً مُطلقة فإنه يجب أن يُسأل مسئوليةً مُطلقة، أما لو إنسان مثلاً لسببٍ ما عنده ضعف عقلي، فلا يستطيع هذا أن يتحمل المسئولية الأولى فهذا لا نُسائله عن كل ما يفعل، فهنالك الكثير من الأفعال التي يأتيها نظراً لتخلفه العقلي لا يُسائل عليها، فإذا سمعنا مثلاً أن حمار رفس إنساناً فقتله فلا نستطيع طبعاً أن نحاكم هذا الحمار، إذن المُسائلة على قدر الحرية، ومع الأسف أن الإنسان يطغى كثيراً فيسيء استغلال هذا التقدير الذي قدّره الله عليه وهذه الحرية بأشكال مختلفة، وهذا الأمر يردنا إلى السورة الأولى التي نزلت، وهذه السورة عظيمة جداً، فكلما فكّر فيها الإنسان يعجب من أن هؤلاء الناس في الجاهلية الذين كان يهمهم أشعارهم وفخرهم وحروبهم القَبلية بين بعضهم البعض، يُفاجئون بإنسان لا

يأتي ليحدِّثهم عن كل ذلك إنما يقول: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ثم يقفز إلى علم الجنين ويُكمِّل ﴿خلق الإنسان من عَلَق﴾ ثم يعود فيبيّن درجة الله عزّ وجلّ ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾ فعاد إلى قضية التعليم ثم ينتقل مباشرةً إلى موضوع مهم جداً من موضوعات علم النفس والاجتماع ﴿كلا إن الإنسان ليطّغى أن رآه استغنى﴾، فلنتصور هؤلاء القوم الذين لا يهتمون بأي شيء من هذا الكلام، ففجأة أتاهم إنسان وقف على رأس الجبل وصاح بهم وناداهم فاجتمعوا ليستمعوا منه ماذا يريد وهم كانوا يحترمونه، فبدءوا يسمعون منه مثل هذا الكلام، وفي الحقيقة أنا أفكر كيف احتفظ هؤلاء القوم بعقولهم، فأنا في كثير من الأحيان أفكر في موقف هؤلاء القوم الأولون الذين تلقوا النبضات الأولى من الوحي، وإذا كنّا نحن في ذلك الوقت فكيف سيكون رد فعلنا على ذلك إذا كنّا بنفس العقلية ونفس العادات، فهذا شيء عجيب جداً، لكن منذ اللحظات الأولى وضّح لنا رب العالمين هذا القانون النفسي والاجتماعي الذي قدّره أو جعله قادراً في عالَم الشهادة ﴿إن الإنسان ليطّغى أن رآه استغنى﴾ أي يتجاوز الحدود لمجرد أن يشعر أنه قد استغنى عن الآخرين وأصبح يستطيع أن يقوم بعمل بنفسه أو يتخذ قرار، لذلك هذا هو السبب الأكبر في اختلال عدد كبير من الموازيين، فعلى سبيل المثال يقول رب العالمين في سورة الرحمن: ﴿ووضع الميزان﴾، والميزان ليس المقصود به هذه الأداة التي هي هاتين الكفتين فقط، وإنما المعنى المقصود به هو التوازن، والله سبحانه وتعالى وضع التوازن في كل جزء من جزيئات هذا الكون؛ في الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة، فكل شيء فيه توازن كامل، فالله سبحانه وتعالى وضع الميزان والأمر الذي أمر به الإنسان ألا يطّغى في الميزان، ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزان﴾ أي لا إفراط ولا تفريط، ﴿وحملها الإنسان إنه كان

ظلوماً جهولاً﴾، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهذا أصل تعريف الظلم، والنابغة يقول: .... الأرض بالمظلومة ....، فالمظلومة يعني التي وُضعت في غير موضعها، والإنسان ظلوم يضع الأمور في غير موضعها، ولذلك يقع في هذه الأخطاء، لكن هذا لا يمضي بغير حساب، فكما قلنا هنالك مُسائلة دنيوية ومُسائلة أخروية، ولذلك فهؤلاء الذين يخلّون بالموازين سوف يُعاقبون على ذلك دُنيوياً، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾، إذن فهذا البغي يُعاقَب عليه الإنسان في الدنيا، وعليه أن يتحمَّل هذه العقوبة مادام قد رضي أن يتحمل المسئولية، وتحمل المسئولية من ...، فهو موجود في الحقيبة الوراثية للإنسان فلما أشهد الله سبحانه وتعالى على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلا شهدنا﴾، ومن جملة هذه الموازين ميزان الصحة، والصحة هي نعمة كما يقول رسول الله ﷺ: "نعمتان مغبونٍ فيهما كثيرٌ من الناس، الصحة والفراغ"، فإذن الصحة نعمة، والقانون المهم في عالَم الشهادة يقول بأن ﴿ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾، إذن فالذي يأتي عملاً يُخِل فيه بموازين الصحة بالنسبة لنفسه فسوف يجد عقوبة ذلك في بدنه، وهذا نجده في أنفسنا عندما يُفرِط الإنسان في الطعام فيجد عقوبة ذلك مباشرةً، وهذا بمقتضى القانون الكوني الذي قدّره الله سبحانه وتعالى، وهو قد أخطأ وطغى وبغى بمقتضى القانون الكوني بأن الله سبحانه وتعالى قدّره أي جعله قادراً على أن يتخذ قراره بحريّة، فهو اتخذ هذا القرار الخاطئ وعليه أن يتحمل المسئولية. وهذا أصل ﴿وحرّمنا على الذين هادوا كل ذي ظُفُر﴾، والأصل فيها أن ﴿كل الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزّل التوراة﴾، لكن بعد ذلك هم طغوا وبغوا ولذلك الله سبحانه وتعالى جزاءً على بغيهم شدد عليهم تشديداً كبيراً، إذن كان هذا

نتيجة تطبيق هذا القانون في عالَم الشهادة وهو المُتعلِق بالمُسائلة وتحمل المسئولية وتحمل العقوبة عليها، وهذه هي بطبيعة الحال العدالة الحقيقية. لكن هذه المُسائلة في الدنيا كثير من الناس يستطيعون التهرب منها، وهذا الشيء لا يحتاج إلى أمثلة فنعرف كثيراً من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الجرائم الكبار ومع ذلك يفلتون منها بغير عقوبة، بل أنهم أحياناً يرمون بها غيرهم أو تبقى مُقيدة ضد مجهول، فهؤلاء نجوا من المُسائلة في عالم الشهادة، فهل يتفق هذا مع عدالة الله عزّ وجلّ ؟!، والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القُدُسي: "يا عبادي إن حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّماً"، ويقول سبحانه: ﴿لا يظلم ربك أحداً﴾، فلا يمكن أن يفلتوا بغير عقاب، فهؤلاء يجب أن يؤدوا حساباً عسيراً على ذلك إذا نجوا من مُسائلة عالَم الشهادة، وهذه القوانين الكونية لا يستطيع الإنسان مهما كان بارعاً أن يتهرب منها بكل الأشكال، كأن يلحق به ضرر أو حادث أو شيء في صحته وما شابه، لكن الأهم من ذلك هي هذه المُسائلة في الآخرة، هنالك ... كل نفس ما ...، ورُدوا إلى الله مولاهم الحق، وإذا نظرنا إلى هذا الإنسان المُعتدى عليه إذا أصابه إنسان بشيء وتهرب بما يصيبه من ضرر في جسمه أو في ماله أو في سمعته أو في أسرته أو أكثر من ضرر، قد يستطيع أن يأخذ حقه في المحكمة الدنيوية بموجب القوانين وقد لا يستطيع، بل قد لا تستطيع المحكمة الدنيوية مع إنصافها أن تعوضه عن الأضرار التي أصابته إلا بمقدارٍ ضئيل، فما الذي يفعله هذا الإنسان في هذه الحالة ؟، هلي تقضي هذه الكارثة على إنسانيته ؟، أو هل تُحطِّم نفسه فيتحول إلى مخلوقٍ منهار مُحطَّم لا يملك من أمره شيئاً ؟، أو هل يتحول إلى إنسان سلبي ينتظر مزيداً من العدوان والتحطيم ؟ - كما تفعل شعوبنا الإسلامية والعربية في الوقت الحاضر -، فهنا تتدخل عقيدة التقدير التي بدئنا بها حديثنا لتحل

لنا هذه المشكلة بأروع ما يكون الحل، ولنضرب مثلاً بأن الحافلة أو السيارة تنص القوانين الكونية على ضرورة فحص مكابحها أي فراملها فحصاً دورياً للتأكد من صلاحيتها للعمل، وسائق هذه السيارة أهمل أن يقوم بهذا الفحص، وقام عدد من الركّاب بالسفر بهذه السيارة، وتعرض السائق أثناء السفر لموقف لا ينجيه منه إلا وجود هذه المكابح ولم يُفلح العمل بها، فانحرفت الحافلة ومات عدد من الركاب، وهذا يحدث كل يوم تقريباً، فمن المسئول في هذه الحالة ؟، المسئول ظاهرياً اثنان هما، سائق السيارة الذي لم يقم بإجراء الفحص الدوري، وهناك مسئول آخر هو هذه القوانين الكونية التي تقضي بأن المكابح الفاسدة لا تلبي عند الحاجة، فهذان المسئولان هما المسئول الظاهري، أما المسئول الحقيقي فهو سائق السيارة وحده، فالقوانين الكونية التي قدّرها الله أي جعلها نافذة أي "empowered by God"، فهذه كانت تسير كما ينبغي لها أن تسير وهي لم تنحرف عن طريقها، فطريقها هو أن كلما أُهمِل فحص هذه المكابح فإن هذه المكابح حينما يُضغَط عليها لن تلبي، إذن فالقانون طُبِّق بنصه من قِبل القانون الكوني، لكن هذا الإنسان الظلوم الجهول هو الذي لم يُطبِّق ما جاء في القانون، فهو المسئول الحقيقي عن ذلك، والإنسان الذي أُصيب بفقد عزيزٍ له في هذا الحادث فما الذي يفعله ؟، هل ينهار ويفقد نفسه ويتحوّل إلى إنسان سلبي ؟!، وإنما عليه أولاً أن يقاضي المسئول عن الكارثة، ونتيجة ذلك غير مضمونة في هذا المجتمع الظلوم الجهول، لكن عليه أيضاً أن يتأمل تأملاً عميقاً في نتائج تقدير القوانين الكونية، - وأنا دائماً أقول كلمة تقدير بالمعنى الذي ذكرته في البداية أي أنه جعل هذه القوانين قادرة أو نافذة المفعول أو قدّرها على ذلك -، فإذا نظر هذه النظرة وهو أن هذه القوانين الكونية مُقدَّرة وهي سارية المفعول وستسري شئنا أم أبينا، فيستطيع أن يستوعب أنه ما كان

ممكن لهذه لكارثة أن تقع في غياب الفحص الدوري، لأن هذه القوانين الكونية نافذة لا يمكن تعديلها ﴿لن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾، وأن "تقدير" هذه القوانين ما كان يمكن الفرار منها، فإذا نظر هذه النظرة فيبدأ يتقبل هذه الواقع ويتحمله على الرغم ما ينطوي عليه من ألم المصاب، فيبقى إنساناً إيجابياً فعالاً بكل شكل، وهذه الازدواجية بسبب الكارثة نلمحها في الآيات التالية: ﴿وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم﴾ أي أننا نحن المسئولون، ﴿ما أصاب من مصيبةٍ إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهدي قلبه﴾، فالذي يفكر هذا التفكير ويعرف أن تقدير هذه القوانين الكونية سارٍ ولا يمكن الفكاك منه لأنه قانون ثابت فيهدي الله سبحانه وتعالى قلبه ويتقبل هذه المصيبة، ﴿ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ...﴾، "كتاب" فهذا معروف أنه حينما يخالف الإنسان تكون النتيجة مُتوَقعة، فإذا استعملنا كلمة أنها مكتوبة أو مُقدّرة أو أي كلمة أخرى فالمعنى واضح، وهو أن هذا قانون نافذ وهذا القانون لا يتحول ولا يتبدل، فإذا أدى إنسان بعمله إلى خرق هذا القانون، فتكون النتيجة معروفة، وهذه مكتوبة كما هو مكتوب في قوانيننا العادية أن من يخالف يتعرض إلى عقوبة معينة، فهذه الأشياء مكتوبة باعتبارها جزءً من التقدير والذي هو تمكين لهذه القوانين، وموقف الإنسان الآن من هذه القوانين هو الذي يُطلَق عليه اسم الصبر، والقانون الكوني هو القَدَر وهذا هو الذي وقع والذي قُدِّر أي الشيء الذي قدّره الله عزّ وجلّ أن يكون قانوناً سارياً نافذاً في هذه الأرض، إذن هذا "التقدير" للقوانين الكونية كما قلنا بمعنى أن يهبه الله القوة على أن يكون نافذاً – وسنركز على لفظة تقدير لنقترب من مفهوم القَدَر الذي سارت حوله نقاشات طويلة من صدر الإسلام حتى اليوم – فهذا القانون الكوني النافذ في عالَم الشهادة هو القَدَر، فهذا القَدَر يقابله الإنسان

المؤمن بالصبر، ولذلك الصبر له أهمية كبيرة جداً في نظر الإسلام، وهذا الصبر يقتضي من الإنسان أولاً وقبل كل شيء أن يُذكِّر نفسه بأنه وكل ما في هذا الكَوْن مِلكٌ لله عزّ وجلّ، وأنه مهما طالت الأيام سوف يعود إلى محكمة الله عزّ وجلّ وسوف يقاضي من آذاه وأضرّ به أمام رب العالمين، وهنالك لا يوجد إمكانية للفرار من هذه المُسائلة، ولذلك يقول"إنّا لله – أي أننا كلنا مِلكٌ لله عزّ وجلّ – وإنّا إليه راجعون"، ويعرف أنه حينما يعود إليه فعند ذلك ستتحقق العدالة الحقّ، إذن هذه العادلة جارية لكنها سوف تأخذ وقفاً مؤجّلاً، لكن ضمانة هذا الصبر "أننا إليه راجعون"، لذلك هذه كلمة مهمة جداً، والله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء المؤمنين بأنهم يقولون "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، فهم يتذكرون قول الله عزّ وجلّ أيضاً: ﴿اتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفّى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ فكل نفس تُوفّى ما كسبت بلا ظلم في محكمة الله عزّ وجلّ، فحينما يشعر الإنسان بهذا الشعور فيعرف أن قضيته أُجِّلَت لكنه لم يخسر هذه القضية، بل على العكس هو يضمن نتيجة هذه القضية في محكمة الله عزّ وجلّ، لذلك لا يجزع ذلك الجزع الذي يشعر به الآخرون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، لذلك قضية الإيمان باليوم الآخر هي من أهم العقائد التي يعتقدها الإنسان لأنها تُولِّد فيه روح الإيجابية وروح التحدي والمُثابرة لأنها هي وحدها التي يمكن أن تحقق العدالة الحقّ. ولننظر مثلاً إلى إنسان من الطغاة الذي يقتل مئات من الناس إذا أتينا به وحاكمناه فحُكِمَ عليه بالإعدام، ولكن هذا الإعدام مقابل شخص واحد وهو قاتِل للكثيرين، إذن هذا لا يمكن أن يلقى جزاءه إلا في اليوم الآخر، إذن الإيمان باليوم الآخر في حد ذاته منبع كبير للإيجابية في شخصية الإنسان، فالإيمان باليوم الآخر هو ضرورة قبل أن يكون جزءً من إيماننا، ولم لم يوجد لكان من واجبنا أن نبحث عنه لأنه يحل كثيراً من المشاكل وهو

الذي يحافظ على سلامة شخصية الإنسان وعلى إيجابيته، فعندما نعرف أن هذا هو موقف الإنسان من قوانين الله الكونية وهو هذا الصبر،نسأل عن موقفه من قوانين الله الشرعية، فكما أن هناك قوانين كونية تنظم الكون، فهنالك قوانين شرعية وهي أوامر الله عزّ وجلّ ونواهيه، وقد عرفنا ما الذي يجب أن يفعله الإنسان أمام القوانين الكونية، فما واجب الإنسان أمام قوانين الله الشرعية ؟، فالله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان في هذا العالَم هملاً وإنما زودّه ... وهو أنه دلّه على كل ما فيه خيرٌ له ودلّه أيضاً على أيضاً على كل شرٍ حتى يجتنبه، ولو أنه قد قدّره أي جعل له حرية الاختيار بأن يتخذ القرار كما يشاء وأن يفعل ما يشاء من خيرٍ أو شر، .... مكنّه من أن يفعل ذلك ولكنه هداه إلى الطريق مستقيم، وهذا كما قلنا ما ورد في أول سورة الأعلى ﴿سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى﴾ فالتقدير هو الهداية ...، وهذه الهداية أو الدلالة على الطريق المستقيم تكون كما قلت أكثر من مرة دلالة أو هداية بالتقسيط على دفعات وليست دفعة واحدة، فالله سبحانه وتعالى يكشف للإنسان بداية هذه الطريق، فيقول له هذا طريق الخير وهذا هو طريق الشر، ويبدي له من أوائل هذا الطريق ما يرغبّه فيه، ومن أوائل ذلك الطريق الآخر ما ينفرّه فيه، أي أن الله سبحانه وتعالى يهديه النجدين، فالهداية الأولّية هذه تكفل الله عزّ وجلّ بها بهذه الصورة وبغيرها، وإذا اختار الإنسان الطريق الذي قال له ربه عزّ وجلّ أنه طريق الخير، فعند السير في هذا الطريق تبدأ تتكشف أمامه فضائل هذا الطريق ومعالمه شيئاً فشيئاً فتبدأ خطواته تتسارع لكن الله سبحانه وتعالى حينما يراه أقبل هذا الإقبال وقد استوعب هذا المعنى فيساعده عزّ وجلّ على المُضي قُدُماً في هذا الطريق، ولذلك يقول ربنا عزّ وجلّ: ﴿والذين اهتدوا – أي أنهم دخلوا في هذه المرحلة الأولى – زادهم هدىً وآتاهم

تقواهم﴾ يعني أنه بالإضافة إلى ذلك أنه سبحانه يعطيهم مِنحة والتي هي التقوى، أما بالمقابل ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فهم مُقدّرين يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون، ثم أنهم مُخيّرون بأن يتخذوا القرار الذي يشاءون، ثم إن الله سبحانه وتعالى قد هداهم فدلّهم على طريق الخير وطريق الشر ولكنهم اختاروا طريق الشر بإرادتهم، فماداموا هم قد اختاروا فليندفعوا في هذا الطريق، فالله سبحانه قد أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا هم، ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً﴾، فهذه من تتمة العدالة الحقيقة في هذا الكون. إذن هما موقفان يقفهما العبد أمام قوانين الله الكونية وأمام قوانين الله الشرعية، فقوانين الله الشرعية التي تتضمن الأمر بكل ما هو خير والنهي عن كل ما هو شر مهما اختلفت التسميات، أي إذا قلنا الخير والشر أو البر والإثم أو المعروف والمنكر، إلى آخره، فالمهم أن القوانين الشرعية دائماً تأمر بالقائمة الأولى وتنهى عن القائمة الثانية، فهذه ينبغي أن يقف منها الإنسان موقف الطاعة والامتثال، فحينما يقول له ربه عزّ وجلّ: ﴿أقيموا الصلاة﴾، و﴿أنفقوا مما رزقناكم﴾، و﴿اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ وغيرهم من الأوامر والنواهي فهذه الأشياء أمر للتنفيذ، إذن فالقانون الشرعي هو أمر للتنفيذ أما قوانين الله الكونية فكما قلنا يقف منها الإنسان موقف الصبر والتسليم، فيسلِّم بها لهذا التفسير الذي ذكرناه، والشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – وهو من عظماء هذه الأمة، له كتاب جليل اسمه "فتوح الغيب" وقد علّق على هذا الكتاب وشرحه الإمام ابن تيمية بتعليقات جميلة ولكن في الأصل الكتاب أجمل بكثير، ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في فتوح الغيب: "لا بد لكل مؤمنٍ في سائر أحواله من ثلاثة أشياء؛ أمرٌ يمتثله ونهيٌ يجتنبه وقَدَرٌ يرضى به"، فإذن النقطة الأولى والثانية هي قوانين الله الشرعية، فالأمر يمتثله والنهي يجتنبه، والنقطة الثالثة هي القوانين الكونية وقد أسميناها

القَدَر، وبالطبع أن يرضى بالقَدَر هي مرحلة أعلى من الصبر، ونجد أن سيدنا عمر بن عبد العزيز عندما وصل إلى هذه المرتبة العليا كان يقول: "صار رضاي في مواضع القضاء"، فرضاه وسعادته في هذا القضاء الذي سيقع ولو كان مؤلماً ولو كان مُحزِناً فهو يسعد به، لكن هذه بالطبع درجة عُليا لا يصل إليها أي إنسان، وعندما دخل مساعد سيدنا عمر بن عبد العزيز عليه وأتاه بثوب، فمس هذا الثوب وقال: "ما ألينه !".... ، فقال: "لِمَ ؟"، قال: "إنما كنّا في المدينة المُنورة وأتيناك بثوبٍ أنعم من الحرير"، فقال: "ما أخشنه !، يا فلان إن لي نفساً توّاقة، ما بلغت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه وإنها ...."، فسيدنا عمر وصل لهذه المرحلة أن صار رضاه في مواضع القضاء، لكن المطلوب منّا نحن هو أن نصبر على هذا القضاء، وفي ذلك كما يقول الشيخ عبد القادر مُطابقةٌ لقوله تعالى: ﴿ومن يتقي ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وقوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾، وقوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾، إذن موقف الإنسان من القوانين الشرعية هو الاستسلام والامتثال ومن القوانين الكونية هو التسليم أي الصبر والرضا، فالاستسلام مع التسليم هو الإسلام، فالإسلام هو الاستسلام لقوانين الله الشرعية كما أنه التسليم بقدر الله أي بقوانينه الكونية، فهاتان هما دعامتا الإسلام الذي هو دين الله الذي أرسل به جميع رسله وأنزل به كل كتبه، وموقف الاستسلام أو امتثال الأمر وما يستتبعه من سلوك يُطلق في الإسلام عليه مصطلح العبادة، والإمام ابن تيمية يقول في هذا بكلام رائع في رسالة العبودية خاصةً وفي غيرها، ويقول فيها: "إن هذه العبادة تتضمن غاية الخضوع بغاية الحب"، فمن خضع لإنسان ولم يكن محباً له لا نسميه عابداً له، ومن أحب إنساناً وعشقه ولكنه لم يخضع له خضوعاً استسلامياً فلا نقول أيضاً أنه عابداً له حتى

يجمع الأمرين معاً، وهما غاية الخضوع والتذلل بغاية المحبة، وهذان ركنّا العبادة، وإذا أخذ العبد هذا الموقف أي أقصى الخضوع والتذلل لله عزّ وجلّ مع أقصى درجات الحب، فعند ذلك يكون قد أسلم وجهه لله وهو محسن، وأما إذا وقف هذا الموقف نفسه من أي شيءٍ آخر غير الله عزّ وجلّ يكون قد اتخذ هذا الغير إلهاً له من دون الله أو اتخذه شريكاً مع الله، وكلاهما ينافي الإسلام الصحيح.

وبما أن الله سبحانه وتعالى قد قدّر الإنسان أي مكّنه من اتخاذ القرار، فإن أي قرار يجب أن يكون مقترناً بالنيّة، وكل عمل يقوم به الإنسان وهو ينوي الامتثال لقوانين الله الشرعية وأوامره عزّ وجلّ فيُعتبَر عبادة حتى ولو لم يكن هذا العمل من المأمورات الشرعية، أي ولو لم يأمر الله عزّ وجلّ هذا العبد أن يفعل ذلك لكنه، فهذا يُعتبر عبادة ويُثاب عليه كما لو كان أمراً من المأمورات الشرعية، وهذه أهمية النيّة وهي أهمية كبيرة، لأن العبادة هي التعبير العملي عن موقف وهذا الموقف هو الاستسلام لله الذي يبتغي به العبد وجه الله وحده، أي لا يقصد العبد أحداً إلا الله وحده وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن "الله الصمد"، ومعنى الصمد هو المقصود والغاية، أي أن الله غايتنا، هذا هو معنى الصمد، وهناك تفاسير غريبة جداً لكلمة الصمد وهي غير صحيحة، لكن الصمد تعني الغاية والمقصود، فإذا قلنا أن الناقة تَصمِد إلى اتجاه معين، فهذا يعني أنها تقصد هذا الاتجاه، فالله الصمد يعني الله هو الغاية، أي أنه لا غاية لنا إلا الله عزّ وجلّ، فما دامت غايتنا هي الله عزّ وجلّ فكل عمل نأتي به ونحن نستصحب هذه النيّة هو عبادة، لأن فيه نيّة إرضاء الله عزّ وجلّ، فهذا تعبير عن موقف العبد فالعبادة كما قلنا هي موقف، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لسعد: "إنك لن تنفق نفقةً تبتغي

بها وجه الله إلا ازددت بها درجةً ورِفعة حتى اللقمة في في امرأتك"، ومعنى أن تضع اللقمة في فم امرأته أي أنه يجلس مع امرأته يداعبها ويغازلها، فعندما يفعل ذلك لا يقصد فقط مجرد الإطعام بل هو أيضاً نوع من الغزل اللطيف والمداعبة والإكرام، وهذا عمل لا يخطر بالبال أن يكون عبادة لكن النبي ﷺ يقول أنه عبادة، فقد قال النبي ﷺ قال في حديث أبي ذر المشهور: "وفي بُضع أحدكم صدقة"، والصدقة عبادة، والبُضع معناه العملية الجنسية مع الزوجة، فقالوا: "يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته – وهي شهوة لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء﴾ - ويكون له فيها أجر ؟"، فسألوه أنه إذا أتى شهوته وسعد بها وسُرّ أيكون له أجر على ذلك، فقال ﷺ مباشرةً: "أرأيتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر ؟"، قالوا: "بلا"، قال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر"، وفي رواية الإمام أحمد "فلِمَ تعتدّون بالحرام ولا تعتدّون بالحلال ؟"، أي فلماذا تحسبونها إذا كانت حراماً ولا تحسبونها إذا كانت حلالاً، فنلاحظ هنا أن النبي ﷺ يلفت نظرنا بهذه اللمسات الرقيقة وهذه اللطائف إلى موقف أنه لا يجوز للإنسان أن يعتدّ بالحرام ولا يعتدّ بالحلال، فكل شيء له حسابه ويجب أن يُعطى قدره، ولذلك كل ما يأتي به الإنسان من الرخص هذا يؤجَر عليه ولو أنها رخصة ويستفيد منها ويستريح، لأن الله يحب أن تُؤتى رخصه، فالذي يأتي رخصة من رخص الله عزّ وجلّ هو قد أتى أمراً يحبه الله عزّ وجلّ، فنيته أن يسر الله عزّ وجلّ ولذلك يؤجر عليها ولو كانت رخصة، فلو صلى ركعتان بدلاً من أن يصلي الأربعة في السفر أفضل لأنه بذلك قد حقق رخصة الله عزّ وجلّ، ولو جمع أيضاً أفضل، فكل هذه المُيسّرات التي وضعها الله عزّ وجلّ إتيانها عبادة، حتى أن الله سبحانه وتعالى قد لخص شريعة الإسلام كلها في كلمة واحدة هي

﴿ونُيَّسرك لليسرى﴾ فاليسرى أي التي لا يوجد أيسر منها على الإطلاق، فالشريعة الإسلامية هي هذه اليُسرى، ولذلك كما قلنا أن النبي ﷺ يقول: "إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُجتَنَب محارمه أو كما يحب أن تُؤتى عزائمه"، وهذا أمر مهم جداً يغفل عنه الكثيرون ومع الأسف تزداد أعدادهم اليوم وهم المشددون المتعنتون الذين قال عنهم النبي ﷺ بالحرف: "إن منكم مُنفِّرين"، وهذا شيء خطير فالنبي ﷺ أمر أمراً صريحاً "يسرّوا ولا تعسّروا، بشّروا ولا تنفّروا" فالتنفير حرام ومع ذلك نرتكبه يومياً مع الأسف، وذات مرة قال أحد المشايخ الكبار: "إن تتبع الرخص فسوق"، مع أن النبي ﷺ يقول: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه" وقال كذلك: "أحبوا ما أحب الله"، فعندما يحب العبد ما أحب ربه فهذا ليس فسوق، ولكنه قال إنه يتتبع ما في مذهب الإمام أحمد والإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الشافعي ويأخذ الشيء اللطيف، ونرد فنقول أن الإمام أحمد مُسلِم وكذلك الإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي، فهو قد أخذ ما رخّص به مسلمون كثيرون وجمعهم فهذه زيادة في الخيرات، لكن للأسف هذه الفكرة موجودة عند كثير من الناس حالياً، وهذا الموقف الذي يشوّه صورة الإسلام، ولا يهمنا هنا ألا يشوَّه صورة الإسلام في نظر الآخرين لكن يهمنا ألا يتشوَّه في نظرنا نحن، فلا نرتكب شيئاً نظنه طاعة وهو معصية، وهذا الأمر خير جداً ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾، فلذلك يجب دائماً أن نكون على حذر من هذا الأمر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سؤال: ....

الصبر والتقوى العلاقة بينهما أن الأولى طاعة للقوانين الكونية والأخرى طاعة للقوانين الشرعية، فالقانون الكوني الذي أسميناه

القَدَر فالإنسان يقابله بالصبر كما قلنا بقول "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، ولو إنه إضافةً القوانين الشرعية أيضاً تحتاج إلى صبر ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، لكن الصبر أساساً في مقابل القوانين الكونية إذا وقعت هذه الأقدار التي لم يكن الإنسان أن يتوقعها أو أن تحدث أي مصيبة من المصائب فكما قلنا أن قول "إنّا لله وإنّا إليه راجعون" تلخِّص موقف الصبر هذا، والأمر الآخر وهو التقوى وهي بالنسبة للقوانين الشرعية هي فعل المأمور وترك المحذور، وفي موضع آخر من فتوح الغيب يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: "إن التقوى هي فعل المأمور وترك المحذور، والصبر هو الرضا بالمقدور"، ولذلك ﴿وإنه من يتق ويصبر فإن ذلك من عزم الأمور﴾، فدائماً التقوى والصبر مقرونين ببعضهما لأن هذين هما الموقفين الذين يجب أن يتخذهما المسلم من قوانين الله الشرعية ومن قوانين الله الكونية، - وأنا أتمنى أن يُدرس الشيخ عبد القادر الجيلاني دراسة خاصة -، فهناك كلمات عظيمة للشيخ عبد القادر الجيلاني التي تقشعرّ لها شعور الكثير من الناس، ومن الكلمات التي عقّب عليها الإمام ابن تيمية في رسالة العبودية ويؤيدها، فيقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: "كل الناس إذا ذُكر القضاء والقَدَر أمسكوا إلا أنا قد انفتحت لي فيه روزنة – والروزنة أي الكُوّة أو النافذة الكبيرة – فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقَدَر لا من يكون مسالماً للقَدَر"، وابن تيمية يقول: "والذي ذكره الشيخ – رحمه الله – هو الذي أمر الله به ورسوله"، أي نحن يجب أن ننازع أقدار الله بأقدار الله، والدليل ما قاله سيدنا عمر ﷺ حينما عاب عليه أبو عبيدة أنه لم يدخل على طاعون عماواس، فقال له: "يا أبو عبيدة، لو غيرك قالها، ألست لو كنت على وادٍ فرَعيتَ ماشيتك في الناحية الجدبة كان ذلك بقَدَر الله ورعيتها في الناحية الخصبة كان ذلك بقَدَر الله"، فنفِر من قدر

الله إلى قدر الله، وندفع قدر الله بقدر الله، فمثلاً قدر الله الذي هو المرض ندفعه بقدر الله الذي هو الدواء، وهذا المفهوم العميق غير موجود عند كثيرين، فهم يفهمون الاستسلام على أنه عدم القيام بأي حركة وأنه السلبية المُطلَقة، وأن يكون الإنسان ... كاملاً مع أن العكس المطلوب هو أن يكون شديد الإيجابية متحدياً صامداً، مرابطاً وصابراً، ولذلك الله سبحانه وتعالى يقول في آخر سورة آل عمران: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، ويقول سبحانه دائماً عندما يأمر أنبيائه: ﴿وخذها بقوة﴾، أي أنه لا يوجد مجال إطلاقاً للتراخي والتساهل والتهاون.

سؤال: ....

هذه ثلاث نقاط، ونبدأ بالنقطة الأولى وهي عن الاستفادة من القوانين التي استفاد منها غيرنا ولماذا لم نستفد منها نحن، إذا حاولنا بدايةً أن ندرس تاريخ العلوم فنجد أن العلماء في المراحل الأولى في الغرب قد تعرضوا لعذاب شديد، مثل كوبرنيكاس وجاليليو وغيرهم قد أحرقوهم وأعموهم وعُوملوا معاملة قاسية جداً من قِبَل الكنيسة، فكانت الكنيسة هي السلطة الأولى في ذلك الوقت وكان الملوك تابعين للكنيسة، ولكن يُخيَّل إليّ أن الذي أنار طريق أولئك في ذلك الوقت ولم نستفد منه نحن مع أنه عندنا هي الحروب الصليبية، فقبل الحروب الصليبية لم تكن هذه الأشياء موجودة أصلاً، وهذه العلوم انتقلت إلى الغرب من جراء الحروب الصليبية، - فهم يسمونها الحروب الصليبية ونحن نسميها حروب الفرنجة -، فحينما جاء الفرسان إلى هنا وأقاموا حول ... وكانوا على فترات ...، فهؤلاء قد اقتبسوا كثيراً من هذه العلوم، ثم بعد أن ذهبوا إلى الغرب وجدوا المناخ الذي يسمح لهم بهذا العمل في حين أن بلادنا لم تسمح بهذا العمل، والمشكلة أن

هذه المني موجودة بين أيدينا ولكنها بحاجة إلى تفعيل ونحن لا نستطيع أن نقوم بهذا التفعيل لأمرين أو نوعين من الشلل أصابا هذه الأمة منذ العصر العباسي؛ والشلل الأول قد دخل إلى هذه الأمة من خلال إسلام الفرس الذين نقلوا معهم ما كان في عقيدتهم الزرادشتية وأكثر منها الزروانية الموجودة في غرب إيران والتي كانت تؤمن بوجود إلهين في هذا الكون؛ إلهاً للخير وإلهاً للشر وأن إله الشر هو الذي خلق المرأة باعتبارها سلاحه الذي يغوي به الناس، فهذا المفهوم بشكلٍ ما إلى المسلمين ثم تسلل إلى فقهاء المسلمين ثم تسلل إلى كتب الفقه ونُفِذَ منذ أوائل العصر العباسي وبذلك شُلّ نصف المجتمع فأُقسيت المرأة نهائياً عن المجتمع، والنصف الآخر من المجتمع لم يُترك أيضاً بسلام لأنه قد أتته الثقافة المشرقية الأخرى التي هي الثقافة اليونانية، والثقافة اليونانية ليست ثقافة غربية ولكنها شرقية، لأن الإمبراطورية اليونانية كان مقرها الرئيسي في الأناضول وسوريا والإسكندرية، والجزر اليونانية هي توابع ولكن الأساس هي هذه المنطقة الأخرى، وهذه قد أتت بقضايا الفلسفة والوجود والكون ومن الخالق وغير ذلك، فحاول الناس في البداية حين تُرجِمت كتب الإغريق أن يردوا على الشبهات التي أتت لكن بعد ذلك استغرقوا في ذلك استغراقاً كبيراً وازداد عدد كتب علم الكلام جداً، وهذا الكلام عديم الجدوى شغل عقول المسلمين عن أن يشتغلوا بالتسخير إلى التكفير، فيكفرون هذا لأنه جهمي وهذا لأنه مرجئ وهذا لأن قدري، فكلٌ يُكفِّر غيره، وهذا بالطبع كلام عديم الجدوى فلم يبقى وطن إطلاقاً يبحث في مثل هذه الأمور، والغريب أنه بالمقابل في المائة القبل السابقة قد برز ثلاثة علماء كبار جداً، أحدهم هو البغدادي صاحب خزانة الأدب والثالث هو الزبيدي صاحب تاج العروس والثالث هو الجبرتي الكبير أبو عبد الرحمن الجبرتي المؤرِّخ وهذا كان لديه عدد من

الاختراعات الميكانيكية التي اخترعها هو وعندما أتى الفرنسيون إلى هنالك سرقوا منه هذه الاختراعات وطبّقوها عندهم، هذا لأن المناخ هنا لم يسمح له لأن يوصل هذه من مرحلة الطاقة أو القوة كما يسميها الفلاسفة والمقصود بالقوة هنا القوة الكامنة "Potentiality" إلى مرحلة الفعل، فلم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك لأن المناخ لم يكن يسمح لهم بذلك ولكن في أوروبا قد سمح لهم بذلك فنفذوها مباشرةً، والغريب الآن ما نسمعه عن ما يُسمى – وأنا أصرّ على كلمة ما يُسمى – بالإعجاز القرآني والأحدث الآن هو الإعجاز بالحديث النبوي، ويقولون أن هذا موجود في القرآن الكريم، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ لم يعتمد عليه العلماء المسلمين في اختراعات أو غيره، فنحن الآن نقول أنها آية من آيات الإعجاز في القرآن الكريم وماذا فعل علماء المسلمين في خلال خمسمائة عام وهم يقرءون هذه الآية صباحاً مساءً ولم تستطع أن تحرك فيهم هذا العقل لأن العقل قد شُلّ كما قلنا أن نصف المجتمع قد شُلّ بشل النساء وشلل للنصف الآخر بعلم الكلام، ولذلك كان كثير من العلماء الكبار بل الأئمة الأربعة عملياً يعتبروا هذا الكلام شيء غير وارد وأنه زندقة، ولكن بعد ذلك قد ساد وشغل عقول المسلمين.

والنقطة الثانية من السؤال،

مُداخلة: ....

نعم هو شيئاً فشيئاً يقتنع، أما الحوادث الكبرى مثل تسونامي، فلإنسان يدفع ثمناً غالياً في بعض الأحيان، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾، بل قد لا تصيب الذين ظلموا ولكنها تصيب ناساً آخرين، ومن هنا تأتي أهمية فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالناس إذا وجدوا ظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب

أليم، فعندما يرفض جورج بوش التوقيع على اتفاقية الحفاظ على البيئة ويسكت العالم كله ولا يتحدث أحد ولا يجبر هذا الرجل على توقيع هذه الاتفاقية فالعالم كله مسئول، ونحن كلنا مسئولون عن جعل هذه الاتفاقية لا ترى النور ولا تُطبَّق ولذلك العالم بحالة فساد مستمر كما ذكرت في الآية الكريمة ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾، فنحن الذين أديّنا إلى هذا الفساد في البر والبحر، ولكن أحب هنا أيضاً أن أشير إلى حاشية صغيرة لم نتحدث عنها لأنها ليست مما نستطيع أن نستوعبه وهي قوانين عالم الغيب، فأحياناً يطرأ شيء في هذا الكون من جراء ارتباطه بقانون آخر من قوانين عالم الغيب لا نعرفه فهنا يمكن أن تحدث بعض الأشياء التي لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً لكن الأفضل أن لا نُلقي كثيرً على الغيب لأننا تعودنا أن نلقي المسئولية على الآخرين تبعاً لنظرية المؤامرة حتى نبرِّأ أنفسنا.

والنقطة الثالثة،

مُداخلة: ....

عكس الرخصة هي المعصية، فالرواية الأخرى للحديث "كما يكره أن تؤتى معصيته".

سؤال: ....

كان أصحاب رسول الله ﷺ في السفر كانوا يقولون: "فمنا المُفطِر ومنا الصائم، فلا يعيب المُفطِر على الصائم ولا يعيب الصائم على المُفطِر"، وهذه بعض الروايات ولكن هذه الروايات لا نأخذها على أنها هي القاعدة، فهذه تتحدث عن واقعة معينة في سَفرة معينة وُجِد فيها صحابة معينون ولكن هذه لا يمكن أن تُعمَم، فمن أخطائنا أن كثير من الأحاديث نعممها دون أن ننتبه لخصوصياتها، وهذا الشيء يلفت النظر إليه الإمام ابن القَيِّم فقد

تحدث حديثاً كبيراً عن هذا الموضوع وكان يأتيه بمناسبة الكلام عن الطب النبوي مع أنه مؤلِّف كتاب الطب النبوي، فكان يلفت النظر إلى أن كثيراً من هذه الأحاديث إنما وردت في ناسٍ مخصوصين في ظرفٍ معين فلا يجوز أن تُعمم على الآخرين، ونضرب من ذلك أمثالاً كثيرة مثل "من تصبح ..... من تمر المدينة"، فهذه كانت لهؤلاء القوم مخصوصين الذين كانوا في المدينة وكان لديهم مرض معين فأمكن أن يستفيدوا من هذا الشيء، لكن هذا ليس أمراً عاماً وليست العجوى دائماً مفيدة ولا تقي من السحر أو ما شابه ذلك، فالإمام القيِّم هو الذي يقول ذلك على الرغم من أنه له كتاب ضخم في الطب النبوي، كذلك "..... لعرق النسا"، فهو يقول ذلك لقوم معينين لا يوجد لديهم شيء آخر للعلاج، وقد فلسفها هو طِبقاً للطب الذي كان معروف بأيامه أنها تُليِّن، فهذه قد نفعت هؤلاء القوم لكن هذا لا يعني أنها تنفع كل الناس، مثل العُرنيين الذين جاءوا للنبي ﷺ وكانوا بحالة سيئة جداً من الصحة فأمرهم بأن يذهبوا إلى إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، فليس معنى ذلك أن الأبوال تنفع لكل إنسان، ولكن هؤلاء قوم معينون أمرهم النبي ﷺ بهذا الحكم المخصوص بهم ولا يجوز تعميم هذا الحكم على الآخرين، وكثيرة هي الأحكام التي أتت لظروف معينة وفقه الحديث هنا يستقر أنه لا يجوز أن تُعمم على الكل، وهناك الحديث الذي صححوه أخيراً، ومع الأسف أنهم قد ركزّوا على تصحيحه، وهو أن البقر لحومها داء، وهذا يعني أنها ... فلا ضرر ولا ضرار، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿... جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾، يقول الله سبحانه وتعالى "لكم فيها خير" فهل من المعقول أن يقول النبي ﷺ "فيها داء"، فكيف يُصحح هذا الحديث ؟!، لأن أي حديث يصادم القرآن ويصادم الواقع فليس صحيح، فهناك ما يُسمى نقد المِثل، فهذا يصادم القرآن ويصادم الواقع، لأن الواقع

أن هؤلاء الناس كلهم يأكلون لحوم الأبقار، وعندما اكتشفوا مرض جنون البقر فظنوا أنهم عثروا على الدليل، لكن ما تأثر هو عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة في قوم معينين في جو معين سببه فساد معين وهو ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ لأنهم أصبحوا يطعمون البقر الذي ليس حيواناً لاحماً دم ومخلفات حيوانية فصار كالجلاّلة وهذا لا يجوز أكل لحمه في الإسلام، والجلاّلة أُطلقت بدايةً على الدجاج الذي يأكل هذه القاذورات، وهذه بالمذهب الشافعي لا يجوز أكلها قولاً واحداً، وفي المذاهب الأخرى أيضاً أكلها مكروه، فهذا بما كسبت أيدي الناس، لكن في الأصل رب العالمين يقول: ﴿لكم فيها خير﴾ ونحن بعدها نقول أن فيها داء، فللأسف أصبح هناك تساهل في التصحيح لكثرة الطرق، وكثرة الطرق لا تدل دائماً على الصحة.

سؤال: ....

"لا ينطق عن الهوى" هذا يتعلق بالقرآن فقط، أما قضايا التي تتعلق بأمور الدنيا فالنبي ﷺ ذكر فيها الأشياء التي كانت معروفة عند الناس الذين كانوا في ذلك الوقت، وابن خلدون يذكر في هذه الأشياء كلام نفيس جداً، فيقول أن هذه كلها أشياء مما كانت تعرفه الأعراب والنبي ﷺ كان يلقى هؤلاء العرب فيسمع منهم، فإذا استنصحه أحد نصحه بما سمع، كما كان الحارث بن ....، فكان يرسل إليه بعض الناس، فهذه الأشياء ذكرها النبي ﷺ على أساس أن هذه من أمور الدنيا وهو ﷺ قال للناس: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"، وأعتقد أنه لا يجوز أن نأتي بهذه الأشياء لا على سبيل التبرك ولا على سبيل الاستطباب، ولكن يجب أن نسأل طبيباً فإذا قال الطبيب أنها غير صحية فلا يجوز أبداً استعمالها، هذا لأن النبي ﷺ علّمنا بتجربة واقعية خلاف ذلك بقضية ... النخل، والشيخ عبد المتعال الصعيدي - رحمه الله - له توجيه

لطيف بالموضوع، فيقول أن النبي ﷺ وجد الناس ... النخل، فيصعدون إليه بالتسلق فهو يتعذّب عذاباً شديداً ثم أنه يجوز أن يسقط من فوق ويموت، فهذه الطريقة لم يحبها النبي ﷺ، فخطر له – فيما يظن الشيخ عبد المتعال – قول الله عزّ وجلّ: ﴿وجعلنا الرياح لواقح﴾ قال فلنجرب لعل الرياح نفسها ... كما في بقية الثمار، فلذلك أمر قوماً مخصوصين لا تتأثر هذه الحديقة عندهم بكثير إذا لم تُلقَّح، لكن لم يعمم هذا الأمر، وناس كثيرون يظنون أنه عندما سأله أهل المدينة قال لهم ....، لكنه كانت فقط مجموعة صغيرة التي سألته، فجرّب فيهم هذه التجربة العلمية. وقد قال النبي ﷺ: "ما أمرتكم به عن الله عزّ وجلّ فخذوا به فإني لن أكذب على الله وما ذكرته لكم من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمور دنياكم"، وهذا أول من لفت النظر إليه سيدنا الحباب بن المُنذر عندما قال له في موقعة بدر: "يا رسول الله أهذا منزلٌ أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة"، فقال ﷺ: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، فقال رأيه على هذا الأساس وغيّر خطة المعركة، وبعدها عندما فوّض سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة في مفاوضة غطفان عندما كان الحصار على المدينة في غزوة الأحزاب وغزوة الخندق، ففاوض هؤلاء على ثلث ثمار المدينة، على أساس أنهم ينسحبوا و....، فجاء السعدان للنبي ﷺ وقالا: "يا رسول الله أهذا أمر من الله فنطيعه" فقال ﷺ: "لا ولكني حاولت أن أجتهد الخير لكم" فقالا: "يا رسول الله إن هؤلاء عندما كنا في الجاهلية لم يكونوا يحلمون بتمرة من تمر المدينة، فالآن بعد أن أعزنا الله بالإسلام نعطيهم، فلا والله لا يذوقون منها تمرة واحدة"، فقد ألغوا إتفاقية النبي ﷺ ولم يعترض النبي ﷺ، فكل أمور الدنيا كان النبي ﷺ يشاور المسلمين فيها ويشاورونه ويعتد برأي هذا ورأي هذا وأحياناً يصيب وأحياناً لا يصيب، لكن هذا كله من أمور الدنيا أما أمور الدين فلو اجتهد فيها النبي ﷺ ولم

يصب فينزل الوحي بتصحيحها، وهذا نزل في عدد من الحوادث لأنها من أمور الدين، فأمور الدين لا يسكت رب العالمين على خطأها، أما أمور الدنيا فلا يجب أن ينزل الوحي بتصحيحها لأن هذه اجتهادات والناس يفعلون فيها ما يشاءون، وكل هذه الأشياء كانت من أمور الدنيا، وابن خلدون تحدث في هذه الأشياء بكل وضوح ويقول أنه من الأعراف، والسيدة عائشة كانت تستقبل كثيراً من هذه الوفود القادمة من الخارج فتسمع منها، فتنصح بها حينما يأتيها الناس ويستنصحونها، وهذا كان وضع طبيعي لأن على الأقل بعض هذه الأدوية مفيد، فلذلك حينما تنصح بها كثير من الناس يستفيدون لأنها هي التي كانت مُستعملة في طب ذلك الزمان وكانت تفيد شيئاً ما أو تفيد فعلاً، لكن الآن لا يجب أن نأخذ هذه الأشياء على سبيل التبرك ورضاء النبي ﷺ، فالنبي ﷺ لا يرضى أن نفعل هذا الأمر لأن هذا كما قلنا كان لسبب مخصوص ووضع مخصوص وقوم مخصوصين كما قال الإمام ابن القَيّم، خاصةً في بعض الأشياء التي وضّحها بكل وضوح أنه لا علاقة له بها على الإطلاق، ومع ذلك الناس يصرون على أنها من سننه ﷺ، بصورة خاصة مسألة الحجامة وما شابه ذلك، فالنبي ﷺ يقول في الحديث الذي رواه البخاري: "إن كان في شيءٍ من أدويتكم خير، ففي شرطة مِحجم أو شربة عسل أو لدعة نار ..."، والملاحظتين الكبريين في هذا الحديث، أولاً أنه قال "أدويتكم" فهذا ليس دواء النبي ﷺ، فهو يصف لنا ما يقول الآخرون، ثم إنه أتى بها بصيغة ... "إن كان فيها خير"، فإن هنا للتشكيك، بينما ... هي للتشديد، فهذا يعني أنها غالباً ليس فيها خير، فالنبي ﷺ أتى بها بصيغة ... وقال أنها "أدويتكم"، ونحن نصرّ الآن لا بل هي أدويتك فنسيء الأدب بحضرة النبي ﷺ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾، وهذا أنا أتألم منه كثيراً الحقيقة وأخشى على الذين يبشرون به

عن جهل في اعتقادي، فضلاً عن المخاطر التي تنجم عن ذلك بصورة خاصة هذه الأشياء التي تتم عن طريق الدم، فتؤدي إلى أمراض أبسطها التهاب الكبد الوبائي من النوع C، ونجد أن أهم أسباب انتشاره في مصر هي هذه الأشياء.

مُداخلة: ....

الحجارة والشيشة، فالشيشة بالمناسبة هي سبب من أسباب انتشار مرض السلّ، و...

مُداخلة: ....

انتهى